الفكر الجغرافي العربي

المبحث الاول

الفكر الجغرافي العربي قبل الاسلام

في الابحاث السابقة انتهينا عند العصر البطليموسي للفكر الجغرافي والذي يمثل نهاية العصر الذهبي الذي عاشه الفكر الجغرافي في الحضارتين اليونانية والرومانية بدرجة انه اجتذب الحكام والفلاسفة . اذ ان الكثير من الباحثين في مجال الفكر الجغرافي يدخلون الاسكندر المكدوني ويوليوس قيصر ضمن اطار الجغرافيين باعتبار ان الاول استعان بالجغرافيين لتأمين حاجة غزواته ومعرفة المناطق التي يمر منها من حيث طبيعة المناخ والحالة الطوبغرافية والمصادر الطبيعية التي يمكن استثمارها لضمان حاجة الجيش .

وينطبق الحال كذلك على يوليوس قيصر الذي زود الجغرافية بمعلومات مهمة عن كل من بريطانيا والمانيا . حيث كانت بريطانيا قبل غزوات يوليوس قيصر لها من الاقطار الخرافية ولكن بعد ان غزاها يوليوس قيصر عامي ٥٥ . ٥٤ ق . م قام بتسجيل الكثير من المعلومات الجغرافية الخاصة بالاوضاع الطوبغرافية وعادات السكان .

هذه المعرفة التي اعتنقها القادةوالفلاسفة . نراها تنعثر وتنطوي منذ القرن الثالث الميلادي . فيختفي الكتاب والمؤلفون في مجال الجغرافية . ويتجه التفكير العلمي بخطة العام نحو جوانب سياسية ودينية واجتماعية فرضتها الاوضاع التي عاشتها الدولة الرومانية .

ومنذ ان تحولت الدولة الرومانية الى الديانة المسيحية عندما تبنى الامبراطور الروماني قسطنطين الديانة المسيحية بعد انتصاره المبين في وقعة جسر ملفيان سنة ٣١٢ م ومباشرته ببناء عاصمته الجديدة (القسطنطينية) والتي انتهى منها سنة ٣٣٠ م بعد عمل دام ست سنوات(١) .

برزت مرحلة تاريخية جديدة . انقسمت فيها الامبراطورية الرومانية الى قسمين . مالبث القسم الغربي ان تضاءلت قوته امام الغزوات الجرمانية . التي محت

---

(١) هـ . أ . ل . فشر . تاريخ اوربا في العصور الوسطى . ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني . دار المعارف بمصر . القاهرة ١٩٥٠ . ص١٠ .

مانبقى من ثقافة تقوم على اساس الاسلوب العلمي وحلت محلها اقوال الامبراطور التي تقوم على اساس التمتع بهذه الدنيا الفانية . والتي اكد عليها قول القديس اوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) من ان الله خلق الدنيا متاعاً عابراً مصيره الزوال بأمره مابين طرفة عين وانتباهتها(٢) .

كل ذلك انعكست آثاره على الفكر السياسي عامة والجغرافي خاصة فقد اخذت اللغة اللاتينية التي كتبت بها المعارف اليونانية والرومانية بالاندثار وقد عدت تلك اللغة مفتاح الخروج على تقاليد الكنيسة . وقاومتها الكنيسة . الامر الذي ابعد المعارف عن مصادرها . وعدت الكنيسة افكار بطليموس في الجغرافية تمثل الكفر والالحاد ودعت الناس للابتعاد عن تلك الافكار واصبحت افكار الكنيسة وتعاليمها هي الاساس الذي يجب ان يسير عليه المثقفون بل وزادت في ذلك عندما عدت المعلومات الجغرافية التي وردت عن الارض والسماء مخالفة للكتاب المقدس . وانبرى المنافقون من الكتاب ليثبتوا العكس . فدونت آراء تقوم على اساس ان الارض مسطحة ورسمت خرائط مغلوطة ومتخصصة بالكنائس والاديرة ومواقعها وتدهورت الكشوف الجغرافية .

هذه حالة الفكر الجغرافي خلال القرون الاربعة التي سبقت ظهور الاسلام في القارة الأوربية . فما هي حالة المنطقة العربية في هذه المرحلة . خاصة بعد ان انطفأت شعلة الحضارة في مراكزها القديمة .

موطن الفكر العربي قبل الاسلام

في مناقشتنا لمراكز الحضارات القديمة من خلال الفكر الجغرافي اشرنا الى طبيعة تلك المراكز من الناحية الجغرافية متوخين من ذلك ابراز تلك الظواهر على التوجيهات الفكرية لسكان تلك المراكز .

فقوة الحوافز الطبيعية المتمثلة في وجود الانهار ودورها السلبي والايجابي . قد حفز العراقيين والمصريين والصينيين للبحث عن وسائل من شأنها الحد من الآثار السلبية لتلك الحوافز والابقاء على ايجابياتها وتسخيرها لمصلحة الانسان .

وكذلك الحال بالنسبة للمراكز الحضارية الفرعية التي اشتقت عن الحضارات القديمة كالحضارة الفينيقية واليونانية والرومانية . وعرفنا كم كان اثر البيئة

---

(٢) نفس المصدر . ص ١٠ .

الطبيعية على توجهاتهم الفكرية . فلم يكن اتساع الافق الجغرافي الفينيقي البحري الانتيجة للبيئة البحرية التي مثلها البحر المتوسط .

وما دام الحال كذلك فلا بد من ان نعرج على بيئة شبه جزيرة العرب التي تمثل الموطن الاصلي للحضارة العربية قبل الاسلام .

تقع شبه جزيرة العرب في الزاوية الجنوبية من قارة آسيا وتحيط بها المياه من جهاتها الثلاثة . ففي جهة الغرب يحدها البحر الاحمر والذي كان يسمى ببحر قلزم والبحر المتوسط . وفي شرقها خليج عمان والخليج العربي وفي جنوبها البحر العربي .

وتتكون شبه جزيرة العرب من هضبة واسعة . تنتهي في الجهة الغربية بسلسلة جبال السراة والتي تخترق ارض الحجاز واليمن كما تنتهي في الزاوية الجنوبية الشرقية بمرتفعات الجبل الاخضر وتنحدر الهضبة كلما تقدمنا نحو الشرق . وتحصر جبال السراة بينها وبين البحر الاحمر سهلاً ساحلياً يسمى بسهل تهاما والذي تغطي سطحه الرمال المختلطة بمياه البحر الأحمر والتي تجعل صلاحيته للزراعة معدومة .

اما في الجهة الشرقية فتنتهي الهضبة بسهول رملية عند التقائها بالخليج العربي والتي تعرف بمنطقة الاحساء . وهي عبارة عن سهول تغطي سطحها الرمال التي اختلطت بمياه الخليج فزادت فيها الاملاح .

والمناخ الذي يسود شبه جزيرة العرب مناخ صحراوي باستثناء الزاوية الجنوبية الغربية والمتمثلة في اليمن والتي كانت معروفة ببلاد العرب السعيدة .

وهنالك منطقة اخرى تصيبها حصة من الامطار تتمثل في مرتفعات الجبل الاخضر في عمان . وما عدا فان صفة الجفاف الصحراوية تسود معظم شبه الجزيرة العربية ومعدل امطارها لايزيد عن خمس بوصات . وتمتاز امطارها بالذبذبة الزمانية والمكانية والكمية الأمر الذي قلل من أهمية الامطار فانعكست آثارها على طبيعة السكان منذ عصور قديمة . وكان من نتيجة ذلك ان برزت الصفات الصحراوية في جميع النواحي البشرية والطبيعية وانعكست آثارها على حياتهم الاقتصادية والاجتماعية .

ومع ذلك فان المجموعات السكانية التي استوطنت هذه الارض الصحراوية ذات الموارد الطبيعية المحدودة لم تستسلم للطبيعة فقاومتها بوسائلها الحضارية المختلفة والتي سوف نشير اليها ضمنا اثناء متابعتنا للفكر الجغرافي العربي في فترة ماقبل الاسلام .

وما تزال حياة العرب قبل الاسلام تحتاج الى البحث والتدقيق لمعرفة الكثير عن حياتهم العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فالجغرافي الذي يبحث في هذه الفترة . ينبغي عليه ان يبحث في المواقع التي جرت فيها الحروب على عهد دول شبه الجزيرة العربية والطرق التي سارت فيها الجيوش في عصر الرسالة والأماكن التي وقعت فيها المعارك كبدر وأحد. والمواقع التي وقعت فيها حروب الردة والاقطار العربية التي انتشر فيها الاسلام والطرق التجارية وطرق القوافل التي كانت تربط بين اجزاء شبه الجزيرة العربية وبينها وبين الاطراف . وعلى الجغرافيين الذي يريدون الوصول الى حقيقة وطبيعة الفكر الجغرافي الرجوع الى دراسة شبه الجزيرة في فترة ماقبل الاسلام . لمعرفة المواقع والمسالك والبلدان. والحصون والقلاع . وطبيعة الارض والمناخ والاطلاع على الجغرافية البشرية للامة العربية واحوال السكان .

فلقد كان للعرب قبل الاسلام رصيد من المعرفة لايقل عن بقية الأمم التي عاصرتهم فقد ذكرت عنهم الأمم القديمة كاليونان والرومان الشيء الكثير واشارت الى اخبارهم الكتب الدينية وعثر المستشرقون وعلماء الآثار على نصوص وآثار منقوشة او مكتوبة في اليمن والحجاز وبقية اجزاء الوطن العربي . تدل على ماوصلت اليه حضارتهم ومن الامور التي تشير الى اثبات ذلك النقوش والكتابات التي عثر عليها كل من آرنو . وهاليفي وكلازر وغيرهم في اليمن . ومن بينها نصوص قوانين ووثائق قانونية وانظمة دستورية(٣) .

وكان العرب قبل الاسلام يدونون اخبارهم في كراريس وصحف ورفوف ونقوش على الجدران والمباني والصروح والاضرحة بالخطين المسند والحبري الاول في اليمن والثاني في الحجاز(٤) .

وكانت القراءة والكتابة منتشرتين بين العرب ليس في اليمن فحسب بل في الحجاز .

---

(٣) نفس المصدر . ص ٩٣ .

(٤) نفس المصدر . ص ٩٦ .

ومما يثبت ذلك أن القرآن الكريم قد ذكر القراءة والكتابة. واشار الى وسائلهما. كالقلم والكتاب والصحف. ويقرأ ويكتب. الى آخره من المعاني والكلمات التي كانوا يعرفونها.

واذا رجعنا الى احداث معركة بدر نجد ان من شروط المسلمين على الأسرى ان يعلّم كل اسير عشرة صبيان كفدية له. وهذا يعني ان جيش قريش كان يحتوي على عدد لا بأس به من الذين يحسنون القراءة والكتابة وقد تمثلت وسائل الكتابة في جلود الاغنام والماعز وسائر الدواب الداجنة والوحشية(٥).

واحسن المواد التي يكتب عليها الحرير وجلود الغزلان والتي تعرف عادة بالرقوق والتي استخدمت لكتابة المعلقات والرسائل وبجانب ذلك استخدمت الاحجار على نطاق واسع لتسجيل اكثر الوثائق والنصوص.

والعلوم والمعادن التي اهتم بها عرب ماقبل الاسلام. كانت استجابة للظروف الطبيعية التي كيفت حياتهم وطراز معيشتهم واملت عليهم ان يسلكوا سلوكاً يمكنهم من الوقوف في وجه الطبيعة القاسية.

فقلة الامطار التي امتازت بها شبه الجزيرة. قادتهم الى الاعتناء بالأنواء الجوية ومهاب الرياح والامطار ومواسم سقوطها ومناطق تجمعها.

وكثرة الاسفار والانتقال التي هي ميزة صحراوية تمليها الطبيعة على الأنسان قادتهم الى الاهتمام بالنجوم ومواقعها للاهتداء بها ليلاً.

وفي الجوانب الاخرى من الحياة كانت المعرفة العربية على درجة متقدمة لاتقل عن بقية المناطق العالمية.

ففي مجال الحياة السياسية توصل العرب الى نظم سياسية ثابتة تتوفر فيها مقومات الدول الحديثة من حيث السيادة والادارة والتنظيم واحسن ماتشير اليه الدول التي نشأت في الجنوب كالدولة المعينية التي حكمت مابين ١٢٠٠ ـ ٦٥٠ ق. م(٦).

وهي بذلك تسبق تأسيس الدولة اليونانية في عهدها الاول عهد الملوك الذين استمروا من (١١٠٠ ـ ٧٥٠ ق. م)(٧).

---

(٥) نفس المصدر. ص ٩٦.
(٦) نفس المصدر. ص ٩٨.
(٧) طه باقر. مصدر سابق. جـ ٢. ص ٢٦٩.

والدولة السبأية التي حكمت مابين (٧٥٠ـ ١١٥ ق . م) وهي بذلك تسبق الدولة الرومانية التي تأسست سنة ٥٠٨ ق . م وقد اشارت الكتب الدينية والتاريخية القديمة الى هذه الدولة والى الدور الحضاري والاقتصادي المتقدم الذي وصلت اليه .

فالدولة السبأية وحاضرتها مدينة مأرب كانت مركزاً للتجارة بين الهند والحبشة والشام والعراق(٨) .

وكانت تعتمد على تجارة البحر . ولكن عندما اصبح طريق البحر غير مأمون تحولت التجارة الى البر فكانت السلع تأتي من الهند والحبشة الى شواطيء جزيرة العرب فينقلها السبئيون براً الى مصر وبلاد الشام والعراق وكانت القوافل تسير في سواحل الجزيرة الى مأرب وتتجه شمالاً الى مكة ومنها الى البتراء ثم الى غزة على شاطيء البحر المتوسط(٩) .

وكان من نتيجة ذلك ان زادت ارباح الدولة السبئية وعظم شأنها فحفروا الترع وبنوا السدود وانشئوا القصور .

ومن المآثر التي اقامتها الدولة السبئية سد مأرب . ودراسة سد مأرب بحد ذاته تعطي للباحث مصادر متعددة منها يستنتج قوة وسيطرة الدولة وتقدم الفكر الهندسي عند العرب وتطور الانتاج الزراعي ومعرفة جغرافية الاحوال البيئية وطبيعة انحدار الارض وانواع الترب ومقدار كميات المياه المتجمعة في الوديان .

وسد مأرب ليس هو السد الوحيد الذي اقيم في شبه الجزيرة العربية فهنالك اعداد كبيرة من السدود تصل الى ثمانين سدا .

واذا اردنا ان ندعم رأينا في الفكر العربي قبل الاسلام علينا ان نركز على دراسة ديوانهم (شعرهم) فالشعر العربي كان التاريخ الحقيقي لتسجيل احداثهم وافكارهم اليومية . اجتماعية كانت ام اقتصادية أو سياسية . وهو غني بأخبار تلك المرحلة خاصة وانه وصل الى قمته من حيث صياغة الكلام وقوة التعبير وهذا مانجده في جميع اشعار العرب قبل الاسلام .

---

(٨) احمد الاسكندري . المفصل في تاريخ الادب العربي . القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٦ .

(٩) باسيل دادسون . مصدر سابق . ص ٧٢ .

ويأتي في مقدمة شعرهم ماتركوه لنا في شعر المعلقات التي تمثل نخبة من قصائد اختارها العرب من شعر فحولهم وذهبوا على الحرير ولقوها على استار الكعبة تشريفاً لها وتعظيما لمقامها واعترافاً بمكانتها الفاضلة وحسن سبك معانيها حتى اصبحت العرب تترنم بها في نواديها وتفتخر بها في حاضرها وباديها(١٠)

أضافة الى ماتركوه من نثر وقول مأثور وامثال واحاديث تشير الى المرحلة المتقدمة التي وصلوا اليها في مجال الأدب واللغة .

ومن دراسة ماتقدم يمكن القول ان الامة العربية في هذه المرحلة لم تكن امة جاهلة كما تمثلها فكرة اعداء الامة العربية والتي صورت لنا آثار هذه الامة ممثلة في المعارك والقتال المستمر لابسط الامور بل كانت بعكس ذلك امة ذات حضارة وادب وسياسة وتجارة واقتصاد ثابت . ولو كان عكس ذلك لاصبحت لقمة سهلة امام اعدائها .

مقومات الفكر الجغرافي لهذه المرحلة

في مجال الفكر الجغرافي لهذه المرحلة برزت المقومات الفكرية الآتية : ـ

(١) سعة الافق الجغرافي :

تمثل شبه جزيرة العرب البيئة التي تمت وتطورت فيها المعرفة الجغرافية وقد امتازت هذه البيئة الى حد كبير بالتشابه الطبيعي الى حد ما . وفي مقدمة ذلك تشابه الاحوال المناخية وهذا الأمر هيأ أمام الانسان العربي افقا واسعاً . وفعلاً فقد امتاز الفكر الجغرافي لهذه المرحلة بسعة معرفة الانسان لبيئته . فالعربي في شبه الجزيرة العربية يتصف بسعة افقه في جميع اطراف الجزيرة العربية ويصف تلك الاطراف ويقارن مابينها ويستدل على شعابها واوديتها وانهارها فطرفة بن العبد صاحب المعلقة الثانية والذي عاش في البحرين اتسع افقه حتى شمل العراق وكل الجزيرة العربية .

واتلع نهاض اذا صعدت به
كسكان يوصي بدجلة تصعد(١١)

---

(١٠) احمد الشنقيطي . المعلقات العشر واخبار قائليها . ص ٣ .

(١١) الشنقيطي . مصدر سابق . ص ١٧

وقد اتسع الافق الجغرافي فشمل اطراف الجزيرة حتى وصل الى جبال طوروس شمالاً .

اما ضمن اطار شبه الجزيرة فكان الشعر العربي فنيا بمعرفة الامكان وتحديدها وربما انفرد الشعر والادب العربي من بين الآداب العالمية بسمات خاصة . فالقصيدة العربية عادة يشمل القسم الأول منها ذكر المحبوبة واطلال ديارها حيث كانت تنزل قبيلتها وقبيلة الشاعر . وقد احتوى هذا القسم من القصيدة على مواضع جغرافية متعددة .

فالشاعر لبيد . ذكر في قصيدته اماكن كثيرة كانت تحيط بمدينته منها

لهند باعلام الاغر رسوم
الى احد كأنـــــهـــــن وشوم
فوقف فسل فاكناف ضلغ
تربع فيها تارة وتقيم(١٢)

وهناك امثلة كثيرة في الشعر العربي تدل على ذكر الاماكن وتعرف السامع بها .

ولم يقتصر الافق الجغرافي العربي في هذه المرحلة على اليابسة فقد عرف العرب البحار المحيطة بشبه الجزيرة معرفة تامة. وانتقلوا الى المناطق المجاورة لهم فعرفوا الاجزاء الشرقية من القارة الافريقية ووصلوا بسفنهم الى سواحل زنجبار ومدغشقر وعرفوا الملاحة في معظم سواحل البحر العربي ووصلوا بسفنهم الى الهند واختلط ملاحو شبه الجزيرة العربية بالفينيقيين حتى شملت تجارتهم معظم السواحل الغربية للمحيط الهندي .

ونشير هنا الى ماذكره دافيد سون في كتابه افريقية القديمة تكتشف من جديد والذي يؤكد فيه سيطرة العرب على التجارة في شرق افريقية منذ عصور قديمة . (هذه التجارة التي ازدهرت بسببها المناطق الشرقية للساحل الافريقي لم تكن تجارة همجية ولكنها كانت تجارة منظمة ناجحة منذ ايام ملكة سبأ وربما قبل ايامها بكثير)(١٣) .

---

(١٢) كراتشكوفسكي . تاريخ الادب الجغرافي العربي . جـ ١ . ص ١٢ .

(١٣) باسيل دافسون . مصدر سابق . ص ٢٣ .

الاهتمام بمعرفة الانواء الجوية

المناخ في شبه الجزيرة العربية اهم حافز طبيعي للانسان للبحث عن الوسائل والسبل التي يقلل بها من آثاره القاسية وفي مقدمة العناصر المناخية المؤثرة الامطار قد شعر سكان شبه الجزيرة العربية بذلك منذ القدم واحتاطوا لها عن طريق معرفة مواسم سقوط الامطار واماكن تجمعها . وهذه الحالة تنطبق على جميع اجزاء شبه جزيرة العرب باستثناء الزاوية الجنوبية الغربية (اليمن) وكان من نتيجة ذلك ان وجّه سكان شبه الجزيرة العربية اهتمامهم منذ اقدم العصور نحو معرفة الانواء الجوية . ومواسم هبوب الرياح ومواسم سقوط الامطار وبدايات الفصول ونهاياتها ووحدوا زمن كل منها .

حتى انعكس ذلك على ادبهم وشعرهم . فلا تخلوا قصيدة من قصائدهم. من ذكر الرياح والامطار والغيوم والعواصف وتجمع المياه قال الشاعر ،

كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لاريث ولا عجل(١٤)

وهنا نشير الى ظاهرة مهمة عرفها العرب منذ عصور متقدمة. فقد امكنهم التنبوء بحالة الطقس وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة لخبرة طويلة الامد بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة اما مايسمى بالغروب الكوني للمنازل القمرية . فكان العرب يعرفون ذلك باسم النوء (الجمع انواء)(١٥) .

وكان من نتيجة ذلك ان تجمعت لدى العرب معلومات مختلفة عن الانواء. صاغوها بصورة سجع ادبي .

(٢) التوزيع الجغرافي للاماكن

احتوى الفكر الجغرافي العربي في مرحلة ماقبل الاسلام . على الكثير من الاسماء الاماكن . وخاصة تلك التي اشارت اليها القصائد العربية . وبعض النصوص والتي احتوت اسماء كثيرة للاماكن الجغرافية . منها ماكانت طبيعية وبعضها بشرية . وخاصة ماوجد منها ضمن اطار شبه الجزيرة .

---

(١٤) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . جـ ١ . ص ٤١ .
(١٥) الشنقيطي . مصدر سابق . ص ١٣٣ .

فذكرت القبائل ومناطق سكناها والجبال والسهول والوديان والنبات الطبيعي واين يكثر واين يقل وربطوا بين العوامل المؤثرة بعضها بالبعض الآخر .

ونشير الى بعض من شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول (ص)الذي يصف فيه بعض المواضع التي قضى فيها وقتاً طيباً في ضيافة قبيلة آل جفنة .

لمن الدار اوحشت بمعان
بين اعلا اليرموك فالحمان
فالقريات من بلاس فدار
يافسكاء فالقصور الدوانى

والاسماء التي وردت في البيتين السابقين تمثل اماكن في كل من الاردن والاطراف الشمالية من المملكة العربية السعودية .

(٤) معرفة مصادر المياه وخزنها

ظهرت الحاجة الى معرفة مصادر المياه الثابتة والى خزنها سنة بعد اخرى نتيجة لطبيعة المناخ الذي يسود شبه الجزيرة العربية . والذي امتاز بالجفاف والتقلب والتذبذب من سنة لاخرى . وكان من نتيجة ذلك ان برزت في هذه المرحلة ظاهرة التحكم في مصادر المياه . فكان ان انشئت السدود على الوديان حتى بلغ عدد تلك السدود ثمانين سداً وفي مقدمتها سد مأرب في اليمن والذي يمثل انجازه معرفة هندسية وطوبغرافية ومناخية وزراعية واضافة الى السدود بنوا الصهاريج المتصلة ببعضها بواسطة الانفاق على هيأة الافلاج وجعلوا لها فتحات متعددة لاخراج الماء منها(٣٢) .

(٥) الاهتمام بالجغرافية الفلكية

من خصائص البنية الصحراوية الترحل الذي انعكس اثره على سكان البوادي في الوطن العربي وجعلهم ينتقلون في مواسم محددة من السنة وقد كان لهذا الترحل الاثر في شحذ هممهم منذ زمن مبكر لمراقبة التغيرات التي تطرأ على القبة السماوية .

---

(٣١) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . جـ ١ . ص ٤١ .
(٣٢) ناجي معروف . مصدر سابق . ص ١٣٩ .

وقد عرفوا الاهتداء بالنجوم وعرفوا طلوعها ومغيبها ، حتى استطاعوا توقيت ساعات الليل ، وفي مقدمة الاجرام السماوية التي اهتموا بها القمر لانهم يانسونه ويجلسون تحت ضوئه المسمر ويهديهم السبل في سرى الليل والسفر . ويزيل عنهم وحشة الظلام وهم في مراقبتهم لمسيرة القمر لاحظوا مبكراً علاقته بالمجموعة النجمية المتغيرة على التوالي(١٨) .

وحددوا منازل القمر وجعلوها ثمانية وعشرين منزلاً اطلقوا عليها اسم منازل القمر واعطوا كل واحد منها اسماً عربياً خاصاً (١٩) .

والمتفحص لشعرهم وادبهم يرى هذه الاسماء في جميع اشعارهم القديمة وقد اثرت بعض الاحداث السياسية في تطوير علم الفلك ، فكان من نتيجة سقوط بابل ان اقتبس سكان الجزيرة منهم امور كثيرة وتعلموا مواقع الابراج ومنازل الشمس والقمر كما عرفوا النجوم السيارة والثابتة (٢٠) .

فقد ساعد سقوط على هجرة الكثير من سكانها الى شبه الجزيرة تخلصا من اضطهاد الفرس .

وقبل الانتهاء من الفصل الخاص بالفكر الجغرافي العربي قبل الاسلام لابد من الاشارة الى حقيقة ثابتة هي ان العرب في هذه المرحلة التاريخية التي سبقت ظهور الاسلام كانوا على درجة عالية من التحضر اذا ماقورنوا بسكان بقية مناطق العالم امثال انكلترا وفرنسا والمانيا وجميع دول اوربا باستثناء سواحل البحر المتوسط فالحياة السياسية المستقرة الناضجة والتي وصلت الى مرحلة تاسيس الدول المعينية – السبئية – الحميرية) تدل على نضوج فكري سياسي في وقت كان يسود معظم مناطق العالم التخلف الهمجية ..وفي مجال الثقافة الفكرية ، فان ادب وشعر هذه المرحلة ياتي في مقدمة الادب العالمي وفي مجال الحياة الاقتصادية كانت التجارة وطرقها المنتظمة والزراعة وسدودها القائمة تمثل طفرة تاريخية ، كل ذلك يدل على ان الحياة الفكرية لهذه المرحلة كانت على درجة عالية من التقدم النسبي المقارن بمرحلتها .

---

(١٨) الهيتي ، المشهداني ، السعدي ، مصدر سابق ، ص ٤٣ .

(١٩) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٤١ .

(٢٠) ناجي معروف ، مصدر سابق ، ص ٦٨ ..

المبحث الثاني

الفكر الجغرافي العربي الاسلامي

اشرنا في الفصل السابق . الى طبيعة الفكر الجغرافي العربي . في مرحلة ماقبل الاسلام . وقارناه مع ما كان عليه الوضع بالنسبة للقارة الأوربية التي كانت تعيش بداية المرحلة المظلمة بالنسبة للفكر الجغرافي . وكذلك الحال بالنسبة لمراكز الحضارة القديمة في كل من العراق ومصر اللذين قد توقفت فيهما شعلة الفكر الجغرافي منذ أن سيطرة القوى الخارجية عليهما . فانطمرت العلوم الجغرافية وفقدت اهميتها في جميع جوانبها . وقد استوى في ذلك الفلك وعلم الارض .

وعندما بدأت شعلة الحضارة العربية تضيء من جديد بقوة الاسلام وعمق الفكر العربي . تفتحت من جديد آفاق الفكر الجغرافي العربي .

فمنذ بداية الفترة الاسلامية وحتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م . وجه العرب اهتمامهم نحو العلوم كافة والجغرافية خاصة . فقد صرفت جهود كبيرة ومتزايدة لدراسة الفكر الجغرافي العربي . وجاء ذلك نتيجة للاصالة والحيوية والنزعة العلمية والعقلية الشمولية التي قامت عليها الحضارة العربية الاسلامية .

فاصالتها تمثلت في كونها وريثة لحضارة ماقبل الاسلام . وحيويتها جاءت من مبتكراتها وابداعها الفني . وشمولها تمثل في عدم اقتصارها على مدينة الاسلام بل تكونت منها ومن مدينة العرب قبل الاسلام ومن مقتبسات من حضارات الأمم الاخرى في الشرق والغرب(٣١) .

اما نزعتها العلمية فقد جاءت من حب العرب للعلم والمعرفة . فالعرب احبوا العلم وكرموا اهله ورجلوا من اجله وبذلوا في سبيله من راحتهم واموالهم .

كما ان الدين الاسلامي قد دعم النزعة العلمية عند العرب وقواها فاقسم بالقلم كما ان الآيات التي ذكرت العلم في القرآن الكريم كثيرة .

ولكل ذلك فقد بدأت بوادر النهضة العلمية منذ البدايات الاولى . ففي صدور الاسلام اهتم العرب بالعلوم الجغرافية فظهرت المؤلفات الجغرافية وخاصة تلك التي ترتبط باللغة العربية .

واستمرت جهود العرب في مختلف فروع الجغرافية وخاصة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي بلغت فيه المعرفة الجغرافية اوجها في مجال التطور الخلاق .

ويمكن متابعة تطور المعرفة الجغرافية في العصر الاسلامي من خلال تقسيمها الى المراحل الآتية :

(١) المرحلة الاولى

تبدأ هذه المرحلة منذ صدر الاسلام حتى منتصف القرن الثالث الهجري. وقد تركزت البحوث الجغرافية في هذه المرحلة على جانبين :

آ ـ الاهتمام بجغرافية شبه جزيرة العرب من حيث طبيعة الارض والمناخ والجوانب المرتبطة بالحياة الاقتصادية والبشرية وقد اتخذت المؤلفات الجغرافية في هذه المرحلة . طابعا ادبياً اضافة الى الطابع الجغرافي . فقد عنيت بالأدب العربي . والشعر الذي دون في فترة ماقبل الاسلام .

ب ـ التهيئة للفتوحات الاسلامية . فقد اكدت الكتابات في هذه المرحلة على طبيعة البلاد المجاورة وفي مقدمتها العراق وبلاد الشام باعتبارها من البلدان المنوى فتحها من قبل المسلمون . وكذلك الحال بالنسبة الى مصر وشمال افريقية . وقد جاءت المعلومات الجغرافية عن هذه البلاد عن طريق ارسال الوفود اليها .

ففي زمن الرسول (ص) حدثت رحلتان واحدة منها تنسب الى تميم الداري والثانية الى عبادة بن الصامت . الاولى كانت الى بلاد الشام والثانية الى بلاد الروم(٢٢) .

---

(٢٢) علي محسن عيسى مال الله . ادب الرحلات عند العرب في الشرق . بغداد ١٩٧٨ ص ١٥ .

واضافة الى ماشارت اليه اخبار الرحلات والتي احتوت على بعض الجوانب الاسطورية كان لحكايات ادب الحديث المبكر والذي يعرف بالفضائل(٢٣). اثره في توفير بعض المعلومات عن البلاد والشعوب المجاورة. وقد تركزت المعلومات في هذه المرحلة على الاماكن المقدسة كالمدينة وبيت المقدس والشام واليمن ومصر.

وفي عصر الخلفاء الراشدين زاد الاهتمام بالبلاد التي انعقد العزم على فتحها واستمرت اوصاف «الفضائل» تكّون مادة جغرافية يمكن ان نسميها بداية للجغرافية الوصفية.

ومن هذه الاوصاف ماجاءنا عن المؤرخ الدينوري الذي اشار الى موضوع (ابن القرية) مع الحجاج والذي نسب اليه اعطاء اوصاف جغرافية لمعظم اقطار شبه الجزيرة والبلاد المجاورة.

ومادمنا قد ذكرنا الحجاج فلابد من الاشارة الى ان الحجاج بن يوسف الثقفي اول من طالب بوضع خارطة وذلك عندما طلب من قائده (قتيبة بن مسلم الباهلي) ان يصنع له «صورة» لبخارى.

وفي العهد الاموي استمرت الرحلات بتقديم المادة الجغرافية عن البلاد المفتوحة والبلاد المجاورة. وفي مقدمة مايذكر عن العصر الاموي رسالة (السمح بن مالك الخولاني) والي الاندلس في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز. والتي وصف فيها بلاد الاندلس وانهارها. وقد ابرزت المصادر الغربية اهتمام السمع بن مالك بالابحاث الجغرافية(٢٤).

واهم مايميز الفكر الجغرافي في هذه المرحلة هو جمع وتنظيم تصورات الفكر العربي قبل الاسلام عن الانواء وتدوين المادة الضخمة المتعلقة بالاماكن وادخال نمط الفضائل في المؤلفات الجغرافية والتاريخية وظهور المصورات الجغرافية وبروز الجغرافية الوصفية وزيادة العناية بتنظيم المعلومات العملية وبروز المخططات الخاصة بالطرق وتحديد مسافاتها. وكانت التوجهات الفلكية قد سارت على خطاها لفترة ماقبل الاسلام.

---

(٢٣) الدينوري. ابو حنيفة احمد بن داود. الاخبار الطوال. ليدن ١٨٨٨. ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢٤) نفس المصدر. ص ٦٠

ومن مؤلفات هذه المرحلة في مجال الفكر الجغرافي (كتاب البلدان الكبير) و (كتاب البلدان الصغير) لهشام بن محمد الكلبي و (كتاب الانواء) للنصرين شميل . و (كتاب اسماء جبال تهامة واماكنها لعرام بن الاصبغ و (كتاب الامصار والبلدان) للجاحظ .(٢٥)

وقد اصبحت آراء هؤلاء المؤلفين تمثل مدرسة انطلقت منها الآراء الجغرافية التي تمثل روح المرحلة .

المرحلة الثانية

كان للاوضاع السياسية التي مرت بها الدولة العربية الاسلامية . أثارها على الفكر الجغرافي . ففي هذه المرحلة التي تنحصر بين منتصف القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري كانت الدولة العربية الاسلامية تعيش عصرها الذهبي من حيث القوة السياسية والتقدم العلمي .

وكان من نتيجة ذلك ان انتقل الفكر الجغرافي الى مرحلة جديدة فرضتها الاوضاع السياسية . فتوطيد قوة الدولة في ساحات مترامية الاطراف من العالم القديم ساعد على ظهور ظروف جديدة كان لابد للفكر الجغرافي العربي ان يواكبها ويستفيد منها وان يثبت جدارتها في ميدان الفكر العالمي .(٢٦)

وعليه فقد برزت بعض الخصائص التي تميز هذه المرحلة والتي تتمثل في الاهتمام الكبير بالجوانب الآتية :

آ ـ الاهتمام بالفكر الجغرافي الاجنبي وترجمته .
ب ـ الاهتمام بعلم الفلك ودراسة الكون .

ففي مجال الاهتمام بالجانب الأول قد ترجمت اهم الكتب المرتبطة بعلم الفلك والجغرافية وفي مقدمتها كتاب المجسطي لبطليموس وقام بترجمته الحجاج بن يوسف بن مطر .(٢٧) والذي انتهى من ترجمته سنة ٨٣٧ م . كما قام بترجمة مبادىء اقليدس باستثناء الكتاب العاشر

---

(٢٥) خصباك . المياح . مصدر سابق . ص ٥٩ .
(٢٦) نفس المصدر . ص ٦١ .
(٢٧) دى لاسى اوليري . مصدر سابق . ص ٢١٠

وقد جرت تنقيحات عديدة على كتاب المجسطي قام بها العديد من المترجمين . وظهر ان الترجمة في هذه المرحلة ـ العصر العباسي ـ كانت تتم في اماكن مختلفة منها بيوت الحكمة العامة وبيوت الحكمة الخاصة ودور العلم والمكتبات الخاصة ومكتبات المساجد وخزائن المراصد الفلكية والربط والمستشفيات والمدارس والجامعات في البلاد الاسلامية كافة .(٨)

اما في مجال الفلك فان الاهتمام به قد فاق الاهتمام بالجغرافية . فمنذ زمن الخليفة المنصور ظهرت بعض البوادر التي تشير الى الاهتمام بالفلك والتنجيم . حتى ان المنصور عندما بدأ ببناء مدينة استعان بمنجمين لمعرفة الطالع لاختيار موقع عاصمة الجديدة والمنجمون هم في نفس الوقت فلكيون .

وفي وقته ترجمت رسالة في الفلك عن اللغة الهندية والتي عرفت بـ (كتاب السند هند) وقام بترجمتها الفزاري ويعقوب بن طارق ولم يكن الفازاري مترجماً فحسب بل كان فلكياً في نفس الوقت فاليه ينسب صنع الاصطرلاب(٢٩) .

وقد استمر تأثير كتاب السند هند لمدة خمسين سنة الى ان جاء المأمون حيث بدأ ينافسه المذهب اليوناني وخاصة عندما ترجم كتاب الجامع والذي يمثل ثلاثة عشر كتابا بجداولها لمؤلفه بطليموس .

وفي هذه المرحلة تطورت الدراسات الفلكية والرياضية بدرجة شملت قياس محيط الارض كما سنشير الى ذلك عند دراستنا التفصيلية للفلك عند العرب .

وفي هذه المرحلة تطور رسم الخارطة وتم المزج بين خارطة بطليموس والخارطة المأمونية .

اما اهم العلماء الذين قادوا الفكر الجغرافي العربي في هذه المرحلة فهم :

آ ـ الخوارزمي وكتابه (صورة الارض) .
ب ـ ابن الفقيه وكتابه (كتاب البلدان)
جـ ـ ابن رسته وكتابه (الاعلاق النفسية) .

---

(٢٨) ناجي معروف . مصدر سابق . ص ٣٥٩ .

المرحلة الثالثة

تمثل هذه المرحلة قمة الفكر الجغرافي العربي الاسلامي وقد امتدت منذ بداية القرن الرابع الهجري حتى اوائل القرن السادس الهجري وتمثل مرحلة النضوج للفكر الجغرافي العربي . فقد كانت معلومات كتابها تعتمد بالدرجة الاولى على الدراسة والمشاهدة والاختيار الشخصي مما جعلها ذات قيمة وكفاءة عالية .(٣٠)

وقد بلغ الأدب الجغرافي العربي اوجه في مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة بذاتها . ولم يقف الفكر الجغرافي عند هذا الحد . فقد تم تشكيل المدرسة الكلاسيكية للجغرافية العربية .

وشهدت هذه المرحلة تطوراً في الكارتو غرافيا العربية تمثلت في انتاج « اطلس الاسلام » .(٣١)

اضافة الى زيادة عدد الرحالة المسلمين . ان الفكر الجغرا في العربي قد وجد له مجالا في المصنفات البيلوغرافية ودوائر المعارف . وفي معاجم المصطلحات كما ارتبط الفكر الجغرافي ارتباطا وثيقا بتطور الفكر الادبي العربي . كما ان علماء هذا العصر امتازت كتاباتهم بالشمولية ويمكن ايجاز اهم الخصائص التي برزت في الفكر الجغرافي العربي الاسلامي في هذه المرحلة بالنقاط الآتية :

(١) اخذ البحث الجغرافي يتجه اتجاها عمليا وعلميا .
(٢) استخدمت المعرفة الجغرافية لتحقيق اهداف ومتطلبات الدولة وحكامها في مجال الاغراض العسكرية والاقتصادية .
(٣) اخذ الفكر الجغرافي العربي يعتمد على الخبرة الشخصية مبتعداً عن الالتزام بالفكر اليوناني والروماني الذي امتازت به المرحلة السابقة .
(٤) الاهتمام بالجغرافية الوصفية نتيجة لكثرة الرحالة الذين عاشوا هذه المرحلة
(٥) استخدام الخرائط في مجالات البحث الجغرافي فقد جاءت بعض الكتب التي وصفت في هذه المرحلة مصحوبة ببعض المصورات والخرائط :

---

(٢٩) ابراهيم شكوت . الاضطراب . مصدر سابق . ص٨ .
(٣٠) خصباك . المياح . مصدر سابق . ص٦١ .
(٣١) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ١٧٧ .

(٦) برزت فواصل بين المعرفة الجغرافية وبين المعرفة الفلكية واصبح لعلم الفلك مكانة مستقلة اما علماء هذه المرحلة فيأتي في مقدمتهم المسعودي واليعقوبي والبلخي وابن حرقل والمقدسي والاصطخري والادريسي وهؤلاء يمثلون المدرسة الجغرافية للمشرق العربي الاسلامي . باستثناء الادريسي الذي يعد من ابرز الجغرافيين الذين انجبهم المغرب العربي .

ومن اهم مميزات هذه المرحلة بروز مدرسة جغرافية تمثل الفكر الجغرافي العربي المغربي الاندلسي ويمثلها الادريسي احسن تمثيل .

فقد برزت في الاندلس والمغرب العربي جهود كبيرة في مجال الفكر الجغرافي ، حيث برزت بعض المصنفات الاندلسية المغربية ، والتي اشار اليها الادريسي في كتابة نزهة المشتاق ، فيما بعد ، ومن قادة هذه المدرسة الاندلسية المغربية التي عدت مؤلفاتهم المنطلق الذي اعتمدته الجغرافية المغربية الاندلسية .

١ ـ الرازي احمد بن محمد

٢٧٤ ـ ٣٤٤ هـ / ٨٨٧ ـ ٩٥٥ م(٣٢)

يعد الرازي ابا الجغرافية والتاريخ ففي الوقت الذي عرفته فيه اوربا مؤرخا مشهورا ، فانه قدم للجغرافية المغربية الاندلسية الكثير ، والرازي من مواليد قرطبة ، التي اصبحت مركز الاشعاع العلمي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي .

واهم ماقدمه الرازي للجغرافية العربية ادخاله نمط الجغرافية الاقليمية وقد الف كتابا ضخما في طرق الاندلس ومرافئه ومدنها الكبرى ، لذلك يعد من البلدانيين .

٢ ـ الوراق ابو عبد الله محمد بن يوسف

٢٩٢ ـ ٣٦٣ هـ / ٩٠٤ ـ ٩٧٣ م .

لقد ساهم الوراق الى جانب الرازي بدخال مفهوم الجغرافية الاقليمية الى الفكر الجغرافي العربي في الاندلس عاش فترة من الزمن في مدينة القيروان ثم سافر الى قرطبة التي كانت تمثل مركز العلوم في عرب الوطن العربي ووضع مؤلفه الكبير (المسالك والممالك) الذي رفعه الى مستوى (المسالكيين) وبالاضافة الى تأكيده

---

(٣٢) احمد سوسة . الشريف الادريسي في الجغرافية العربية . الباب الثاني . من مطبوعات نقابة المهندسين العراقية . ص ٣٤٠ .

على الجغرافية الاقليمية فقد اهتم بمزج الجغرافية بالتاريخ وقد اعتمد البكري على مسالك الوراق اعتمادا تاما في الجزء الذي كتبه عن افريقية(٣٣) . ومن حسن الحظ ان هذا الجزء قد وصل الينا كاملا(٣٤) .

وقد عاصر الوراق الخليفة العلامة المستنصر الذي بعث النشاط المتعدد الجوانب . فقد جلب كتب اليونان واللاتين وامر بترجمتها . كما انه استدعى العلماء المغاربة وطلب اليهم التأليف في تاريخ بلاده وجغرافيتها . وقد استعمل أسلوب رسائل الوافدين في جمع المعلومات .

٣ ـ الطرطوشي ، ابراهيم بن يعقوب
(الرابع الهجري . العاشر الميلادي)

ولد في طرطوش في الاندلس وقاده عمله الى الترحال والسفر فجمع معلومات كبيرة عن المانيا وبلاد الصقالبة والمدن القريبة من الساحل الفرنسي وهولندا . ومن زياراته المشهورة زيارته لامبراطور المانيا اوتو (OIIO) سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م . وقد وصلت الينا اخباره ورحلاته عن طريق العلماء الذين اقتبسوا عنه امثال العذري والبكري والقزويني والحميري وابن سعيد القرناطي .

٤ ـ العذري الدلائي احمد بن عمر بن انس
٣٩٣ ـ ٤٧٨ هـ ١٠٠٢ ـ ١٠٨٥ م

ينسب الدلائي الى احدى قرى الاندلس المسماة دلاية وقد جاءتنا المعلومات عن العذري . عن طريق تلميذه اليكري والذي اشار الى مؤلف العذري (نظام المرجان في المسالك والممالك) وتتميز كتابات العذري بانها قريبة من علم الهايدرولوجي الحديث فقد تناول في كتابه مجاري المياه وعيونها والانهار وفروعها وطرق السقي وهو اول من وصف طريقة الري الحوضي وميزها عن طريقة الري الدائم .

---

(٣٣) نفس المصدر . ص ٣٤١ .

(٣٤) حسين مؤنس . تاريخ الجغرافية الجغرافيين في الاندلس . مطبعة معهد الدراسات الاسلامية . مدريد ١٩٦٧ . ص ٧٥ .

٥ ـ البكري ، ابو عبد الله
٤٠٥ ـ ٤٨٧ هـ ـ ١٠١٤ ـ ١٠٩٤ م

من اشهر الجغرافيين الاندلسيين خلال القرن الخامس وهو من تلاميذ العذري وكان عالما وجغرافيا وشاعرا ومن خصائص علماء الاندلس انهم يجمعون بين الجغرافية والتاريخ . وهو اول من استعمل الطريقة الابجدية في معجمه (معجم مااستعجم) ووضع كذلك كتابه المشهور (المسالك والممالك) ويعد مسالك البكري قمة التأليف الجغرافي في هذا النوع عند المسلمين فقد وصل بهذا الفن الى درجة من الشمول والاتساع والدقة لم يصل اليها احد قبله في الشرق او الغرب(٣٥) . ومن العلماء الاندلسيين الذين ينتسبون الى هذه المرحلة ابن سيده بن اسماعيل وابواسحاق ابراهيم الزرقاني .

المرحلة الرابعة

تنحصر هذه المرحلة بين بداية القرن السادس الهجري ومنتصف القرن السابع الهجري . (سقوط بغداد ٦٥٦ هـ) وقد انعكست الآثار السياسية على طبيعة هذه المرحلة فجعلتها تتخذ طابعا يميزها عن المراحل السابقة . فمنذ ان تفككت الدولة العربية الاسلامية في اوائل القرن السادس الهجري وانحلت سياسيا فقدت المعرفة الجغرافية اصالتها . فقد انصرف الحكام عن تشجيع العلم وتقلصت رقعة الدولة الاسلامية وانقسمت الى امارات شبه مستقلة(٣٦) .

واصبحت حاجة الحكام الى المعرفة الجغرافية محدودة .

ومع ذلك كله فقد برزت اتجاهات عديدة في هذه المرحلة املتها الاوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية .

واستمرت الانماط الاساسية ممثلة في الجغرافية الفلكية والجغرافية الوصفية وجغرافية الرحلات اضافة الى بروز نمط جديد تمثل في كتابة المعاجم والرحلات . وكتابة المعاجم نمط جديد يجمع بين الأدب العربي والمعرفة الجغرافية وقد دعت الحاجة الى مثل هذا النمط نتيجة لوجود اعداد كبيرة من القراء الذين يصعب عليهم

---

(٣٥) سوسة . الشريف الادريسي . مصدر سابق . ص ٣٤٤ .

(٣٦) خصباك . المياح . مصدر سابق . ص ٦٣ .

الجمع بين ماورد من اسماء واماكن في الشعر وبين مايتم التأكيد عليه في المعرفة الجغرافية . ومن كتاب المعاجم :

(١) الزمخشري

هو الأديب العالم المشهور ابوا القاسم محمود بن عمر الزمخشري عاش مابين (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ / ١٠٧٥ ـ ١١٤٤ م) والف معجمه المعروف (كتاب الجبال والاماكن والمياه) وقد اعتمد في كتابة معجمه على معاجم لغويي القرن التاسع التي تبين مواقع الاماكن الجغرافية في الجزيرة العربية التي ورد ذكرها في الاشعار وفي النثر العربي المبكر(٣٧) .

(٢) ياقوت الحموي

هو شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالملك الحموي عاش مابين (٥٧٥ ـ ٦٢٧هـ ـ ١١٧٩ـ ١٢٢٩م) والف مجمه المعروف (معجم البلدان) وقد استفاد كثيراً من معاصرية . اضافة الى كثرة اسفاره التي اكسبته سعة في افقه الجغرافي . وخاصة تلك الاسفار التي شملت الخليج العربي وسواحله واطراف شبه جزيرة العرب الجنوبية . حيث كانت تلك المناطق مركزاً مهماً للتجارة واهمية معجم ياقوت تتجاوز كثيراً حدود الجغرافية الطبيعية . وهو اوسع مصنف من نوعه لمؤلف عربي في العصور الوسطى .(٣٨)

ويتألف (معجم البلدان) من متن مطبوع يصم ثلاثة آلاف وثمانمائة واربعا وتسعين صفحة . وهو جامع لجميع أبواب الجغرافية الفلكية والوصفية واللغوية والتاريخية والدين والحضارة وعلم الاجناس (Ethnolagy) وقد برز معجم ياقوت في القارة الاوربية خلال القرن التاسع عشر حيث ركزت القارة الاوربية اهتمامها على كتابات الادريسي وابن الوردي .

وقد طبع المعجم في ستة اجزاء في الفترة بين عامي ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣ وخرجت له طبعات خلال القرن الحالي . منها طبعة بيروت .

---

(٣٧) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ٣٨ .
(٣٨) نفس المصدر . ٣٣٥ .

(٢) الادريسي

(٤٩٣ ـ ٥٦٠ هـ / ١١٠٠ ـ ١١٦٤ م)

يعد الادريسي من اشهر الجغرافيين العرب . الذين غزوا الفكر الجغرافي كما انه اشهر الجغرافيين الذين عرفتهم القارة الاوربية وقد ظلت كتبه وخرائطه معتمدة في الدراسات الجغرافية في الجامعات الاوربية لفترة طويلة من الزمن .

والادريسي ، هو محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس بن علي بن حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبدالله بن عمر بن ادريس بن عبدالله بن الحسن بن علي (ابن ابي طالب) الشريف الادريسي .(٣٩)

كان مولعا بعلم الجغرافية وعلم النبات واظهر كذلك قدرة ادبية عظيمة فلقد قرض الشعر ويدل اكثره على تغربه وحنينه الى الاندلس .(٤٠)

اما ماقدمه للفكر الجغرافي العربي الاسلامي فيتمثل في :

١ ـ اعداد لوح الترسيم (خارطة الادريسي) .
٢ ـ صنع الكرة الفضية للعالم .
٣ ـ كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .
٤ ـ كتاب الجامع لصفات اشتات النبات .
٥ ـ كتاب روض الفرج ونزهة المهج .

ويتميز الادريسي عن بقية العلماء الذين سبقوه بكونه قد اتبع الطريقة العلمية في انجاز اعماله . فقد اعتمد على المصنفات الجغرافية والتاريخية لذلك العصر . وقد ذكر في مقدمة كتابه انه اعتمد على اثني عشر كتاباً جغرافياً وهي تمثل المصادر التي يعدها المؤلفون قبل التأليف في الوقت الحاضر .

وبجانب المصادر التي اشار اليها في مقدمته . فقد استعان بجمع المعلومات عن بعض المناطق الاوربية والتي خطت منها مؤلفات الذين سبقوه من العرب . وكانت طريقته تتلخص في اختيار بعض الاشخاص ممن اتصفوا بالذكاء والفطنة وايفادهم الى تلك المناطق مصحوبين ببعض المصورين ليصورا مايشاهدونه عياناً مع توصية لهم بالحرص على التقصي والاستيعاب .(٤١)

---

(٣٩) احمد سوسة . الشريف الادريسي في الجغرافية العربية . مصدر سابق . ص ٢٥٣ .
(٤٠) ابراهيم شوكت . جزيرة العرب من نزهة المشتاق للشريف الادريسي . مجلة المجمع العلمي العراقي . المجلد الحادي والعشرين . بغداد ١٩٨٦ . ص ٣ .
(٤١) احمد سوسة . الادريسي . مصدر سابق . ص ٣٦٣ .

ثم يقوم بتدقيق ذلك بنفسه ومن ثم يضع تلك المعلومات على خارطته والتي استغرق العمل فيها خمس عشر سنة ومما تقدم يمكن القول ان الادريسي انفرد في ايجاد الطريقة العلمية المبتكرة الصحيحة والمتبعة في التحقيق العلمي الحديث .

اما بالنسبة للكرة الارضية . فبعد ان انتهى من خارطته قام بنقل المعلومات على كرة صنعت من الفضة وكان عمله هذا يمثل ابداعاً كبيراً فان نقل مافي الخارطة الى الكرة يتطلب وسائل تصغير كالتي نعرفها اليوم . ولكن الادريسي كان لايمتلك من وسائلنا الحديثة سوى الفرجال والمسطرة والمثلث .

والعمل الثالث للادريسي تمثل في اعداد كتاب (نزهة المشتاق) وقد اطلع الادريسي قبل اعداده الخارطة والكرة الارضية والكتاب على اكثر المصادر الجغرافية التي سبقته وقد فاده ذلك في ان يستوعب جميع آراء المدارس الجغرافية .

اما عمل الادريسي الرابع فقد تمثل في اعداد خارطات ملحقة بكتاب (نزهة المشتاق) وقد ارتبطت هذه الخارطات بالمفهوم العام لهيئة الارض ووصفها في الفلك ثم تقسيم الارض الى اقاليم . لقد اقتفى الادريسي اثر العلماء العرب الذين سبقوه كما اشار الى ذلك بنفسه . في موضوع كروية الارض فيقول في بداية (نزهة المشتاق) ان الارض مدورة كتدوير الكرة والماء لاصق بها وراكد عليها ركوداً طبيعياً لايفارقها . والارض والماء مستقران في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة ووضعها وضع متوسط والنسيم محيط بها من جميع جهاتها وهو جانب لهما الى جهة الفلك وذلك لشدة سرعة حركة الفلك وجميع المخلوقات على ظهرها والنسيم جاذب لما في ابدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في ابدانهم من الثقل بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد اليه والارض مقسومة بقسمين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب . وهذا هو طول الارض وهو اكبر خط في الكرة كما ان منطقة البرج اكبر خط في الفلك .(٤٢) وبهذا يكرر الادريسي ماأتى به ابن خرد اذبة وابن رستة وابن الفقيه والمقدسي وهؤلاء جميعاً سبقوه بحوالي قرنين ولم يكتف الادريسي بذلك بل اخذ عنهم وعن غيرهم في عمارة الارض والتي تقتصر على الربع الشمالي من الكرة فيما يخص مساحة الكرة الارضية ولم يأت بشي جديد في مجال تقسيم العالم المعمور الى سبعة اقاليم فقد سبقه الخوارزمي الى ذلك .

---

(٤٢) احمد سوسة . الادريسي . مصدر سابق . ص ٢٥٥ .

اما بخصوص تقسيم الاقاليم الى اجزاء وصنع خارطات لها فقد اخذ الادريسي بفكرة توضيح البحث الجغرافي بطريق رسم الخارطة بحيث يصبح الوصف الجغرافي والخارطات الملحقة به جزءاً واحداً لاينفصل وعلى هذا الاساس قسم الادريسي كلا من الاقاليم السبعة الى عشرة اقاليم متساوية وجعل لكل من هذه الاقسام خارطة توضح مافي داخله من ظواهر طبيعية وبشرية .(٤٣) وبذلك قدم شيئاً اصيلاً .

اما بخصوص الرحلات التي اخذت طابعاً معيناً في هذه الرحلة . فتعود جذورها الى المرحلة السابقة . حيث بدأت الرحلات الجغرافية العلمية تأخذ طابعاً معيناً منذ بداية رحلة ابن فضلان وابن حوقل والمقدسي والتي تمت في القرن الرابع الهجري .

أما في هذه المرحلة فقد اتخذت الرحلات طابعاً جديداً تميز بظهور الصفة الادبية كما ان الاخبار التي وردت في هذه الرحلات اتسمت بطابع البساطة والاهتمام بالمشاهد الدينية والاماكن المقدسة وعدد المساجد ومقابلات رجال الدين وكانت اخبارهم عن الجوانب الجغرافية ذات قيمة اقتصادية فقد اشاروا الى اساليب المعيشة وجوانب مهمة من الزراعة والصناعة والعادات والتقاليد . وهذه جميعاً تكون مادة بحث للباحث في الفكر الجغرافي العربي .

وفي هذا المجال لابد من الاشارة الى ان الفكر الجغرافي العربي سبق الأمم الاخرى في مجال ادب الرحلات .

وفي مقدمة الرحلات التي تمثل المرحلة الرابعة تمثيلاً حقيقياً رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة واللتين سنشير اليهما بالتفصيل في مجال مناقشة الجغرافية الصوفية والرحلات عند العرب .

---

(٤٣) نفس المصدر . ٣٥٨ .

المبحث الثالث

الفكر الجغرافي العربي الاسلامي حتى نهاية العهد العثماني

يمثل احتلال بغداد من قبل المغول سنة ٦٥٦ هـ ، ١٢٥٨ م حداً فاصلاً في تاريخ القسم الشرقي من الوطن العربي .

اذ ان بغداد منذ تأسيسها على يد المنصور سنة ١٤٥ هـ اصبحت عاصمة للفكر العربي وخاصة الجغرافي ، فجميع الجغرافيين الذين غذوا الفكر الجغرافي بمعرفتهم هم خريجو هذا المركز . بالرغم من التدهور السياسي الذي اصاب بغداد ، نتيجة لتدهور الخلافة العباسية ، فان الكيانات السياسية التي جاءت بعد ذلك لم تبتعد عن فكر بغداد ودورها في توجيه المعرفة .

ولكن بعد سيطرة المغول واحتلال بغداد من قبلهم سقطت المعرفة العلمية نتيجة للاتجاهات المغولية التي تقوم على اساس القضاء على مقومات الشعوب الحضارية . لذلك وجه المغول همهم لتدمير المكتبات وحرق الكتب قبل ان يقضوا على ماتبقى من الاوضاع السياسية .

وكان من نتيجة ذلك ان تنازلت بغداد عن قيادة الفكر الجغرافي بعد ان التهمت النيران المغولية معظم مكتباتها وقتل وشرد معظم علمائها ، فظهرت مراكز جديدة تولت قيادة الفكر الجغرافي ، فبرزت مدينة حلب التي لجأ اليها بعض العلماء الذين تمكنوا من الخلاص من فتك المغول ، وجاءت بعدها دمشق ومن ثم القاهرة التي استلمت جانباً من قيادة الفكر الجغرافي طيلة الفترة المظلمة التي مرت على بغداد بعد غزو المغول فهاجر اليها العلماء الذين حافظوا على التراث الذي نشأ هناك . وكان من نتيجة ذلك ان نشأت في مصر انماط جديدة في مجال الفكر الجغرافي فقد نشأ (الدواوين)(٤٤) وهي مراجع ادارية واقتصادية عملت من اجل كتاب الدواوين كما ظهر نمط جديد يعرف (بالخطط) وهي عبارة عن اوصاف تاريخية وادارية للنواحي والاحياء المختلفة من المدن الكبرى . ومن اشهر الذين مارسوا هذه الالفاظ عثمان بن ابراهيم النابلسي وهنا لابد من الاشارة الى ان البلاد

---

(٤٤) كراتشنا كوفسكي ، مصدر سابق ، ص ٣٤٨ .

العربية لم تمسها جميعاً وطأة الغزو المغولي فاستمرت تنمو وتترعرع فيها الانماط المعروفة في الفكر الجغرافي ولتي انتقلت الى الجهات الغربية من الوطن العربي ، سواء في مصر ام في المغرب في الاندلس . وكذلك الحال في الشرق . حيث تميزت الفترة التي تلت الغزو المغولي بظهور عدد من الآثار الكبيرة في محيط الفكر الجغرافي ، تحتل بانماطها نفس المكانة التي احتلتها انماط ما قبل الغزو المغولي .

في الفصل السابق الذي تناولنا فيه الفكر الجغرافي العربي الاسلامي حتى سقوط بغداد تمت معالجة الموضوع على اساس تقسيم البحث الى مراحل ثم شرح اهم الجوانب التي يقوم عليها الفكر الجغرافي . فتمت معالجة . الجغرافية العامة . وعلم الفلك والرحلات . وما نشير الى الجانب الفكر ثم نتابع الذين ساهموا في اغناء ذلك الجانب ونظراً للوننا سنعالج حقول الجغرافية العربية بعد الانتهاء من هذا الفصل فلم يبق امامنا لعلاج مادة هذا الفصل سوى متابعة الفكر الجغرافي من خلال العلماء الذين ساهموا في اغنائه مع الاشارة الى اهم الأضافات التي قدمها كل عالم جغرافي في مجال الحقل الذي تخصص به اضافة الى ان الفكر الجغرافي في الفترة التي سبقت الغزو المغولي كانت متركزاً في مدينة بغداد اما بعد ذلك فقد تشعبت المراكز وتعددت واتسع الافق الجغرافي الذي تناولته الابعاث الجغرافية وخاصة في مجال الجغرافية الاقليمية . فقد برزت في مرحلة مابعد سقوط بغداد . دراسات تناولت مناطق جديدة كانت حصتها من البحث في مرحلة ما قبل السقوط محدودة وفي مقدمتها القارة الاوربية ومناطق الشرق الاقصى .

ويمكن ان نشخص اهم الظواهر التي برزت في الفكر الجغرافي بعد سقوط بغداد بما يأتي :

(١) انتقال الحركة الجغرافية من المشرق الى المغرب العربي والاندلس .
(٢) نشوء فترة ركود في الفكر الجغرافي وظهور جغرافيين وكوزوموغرافيين(*) معظمهم من الاندلس والمغرب ومصر والشام ويغلب على مادتهم النقل .
(٣) بروز الجغرافية الاقليمية والتي اخذت تتناول بحث الكثير من المناطق ولم يكن مؤلفوها دائماً من اهل المنطقة ومن امثلة ذلك كتابات الدمشقي عن جنوب شبه جزيرة العرب والحجاز الاوسط .

(*) الكوزموغرافيا Cosmagraphy . علم وصف الكون .

(٤) ظهر في مصر نمط جديد في مجال الفكر الجغرافي تمثل في جغرافية (الدواوين) وجغرافية (الخطط) الاول يتمثل في مراجع ادارية واقتصادية من اجل كتاب الدواوين . والثاني عبارة عن اوصاف تاريخية وادارية للنواحي والاحياء المختلفة من المدن .(٤٥)

وهذا النمط الاخير يمكن عده من البدايات الاولى لجغرافية المدن . وخير من يمثل النمطين السابقين مؤلفات عثمان ابن ابراهيم النابلسي .

(٥) ظهور بوادر نهضة اوربية وبخاصيات معينة . منها اشاعة الخرائط البحرية وقيام بعض الموانيء على ساحل البحر المتوسط مثل جنوه والبندقية . مما يشير الى ظهور بوادر لتطور الحياة الاقتصادية .

(٦) تحول مهم في اتقان الفنون البحرية . وبناء السفن الكبيرة القادرة على القيام بالرحلات البعيدة . مع تطور فى طبيعة المعلومات الجغرافية الامر الذي مهد للكشوف الجغرافية .

(٧) برزت خاصية نقل المعلومات . حتى يمكننا ان نقول ان ثلثي الذين جاؤا بعد الادريسي نقلوا عنه واشاروا اليه واستعملوا مصنفاته الجغرافية .(٤٦) وحتى الادريسي قد اعتمد على الكثيرين من الذين سبقوه

(٨) كانت النتيجة الحتمية للغزو المغولي ان فقدت اللغة العربية سيطرتها نهائياً على المشرق واحتلت مكانها لغات اخرى .

وفيما يأتي عرض للمؤلفين العرب في هذه الفترة المظلمة وانتاجهم العلمي والادبي ودروهم في تطوير الفكر الجغرافي العربي الاسلامي .

١ ـ ابن سعيد الغرناطي الاندلسي

هو ابو الحسن ، علي بن موسى بن محمد بن عبدالله بن سعيد الغرناطي الاندلسي ولد سنة (٦١٠ هـ : ١٢١٤ م) وتوفي سنة (٦٨٥ هـ : ١٢٨٦ م) بالقرب من غرناطة قام برحلات الى الديار المقدسة وزار مصر والعراق ودرس في بغداد قبل نكبتها ثم رحل الى حلب ودمشق ويجمع ابن سعيد في كتاباته بين الجغرافية والتاريخ . ومع انه اعتمد في كتابته على ماجاء به الادريسي الا انه امتاز

---

(٤٥) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ٣٤٨ .

(٤٦) سوسة . الادريسي . مصدر سابق . ص ٤٣٥ .

(٤٧) نفس المصدر . ٤٣٧ .

بالتطبيق . وقد قدم معلومات عن بعض الاقطار الاوربية وباسلوب طريف كما قام برسم عدد من الخرائط منها . صورة ديار العرب وصورة الجزيرة وصورة العراق .

وقد شارك الادريسي في تقسيم المعمورة من الارض الى الاقاليم كالاحزمة العريضة تحيط بكرتها ولكنه اختلف عنه بأن جعل الاقاليم تسعة .(٤٨)

كما انه حدد كروية الارض واشار الى حدود المعروف منها في عصره . واشار الى خطوط الطول ودوائر العرض . اما اهم مؤلفاته فتتمثل في كتابي (فلك الأدب) . و (بسط الارض في الطول والعرض) .

٢ ـ القزويني ، زكريا بن محمد

ولد بقزوين سنة (٦٠٥ هـ : ١٢٠٨ م) وتوفي سنة (٦٨٢ هـ : ١٢٨٣ م) ويعود اصله الى العرب .

ويعد من اقرب الكتاب الى نفوس الجماهير ويعزى ذلك الى ان مصنفاته كانت قريبة من نفوسهم وتتجاوب مع رغباتهم .(٤٩) كما يعد اكبر كوزموغرافي ومبسط للعلوم من اجل الجماهير .

وقد مثل القزويني دوراً جغرافياً وفلكياً وجيولوجياً . ومن آثاره في الجغرافية كتاب (آثار البلاد واخبار العباد) وله كتاب في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) والقزويني بالطبع ناقل مثالي ويقدم لنا نموذجاً حياً لعصر التدهور وهو بالرغم من اطلاعه الواسع ومعلوماته الغزيرة الا انه لا يأتي بجديد ولا يصوغ نظرية اصلية .(٥٠)

(وابن سعيد والقزويني) هما اضخم الاسماء التي ظهرت في محيط الفكر الجغرافي) نهاية القرن الثالث عشر الميلادي والى جانبهما تتضاءل اسماء اولئك الرحالة الذين اكتسب كل واحد منهم اهمية معينة في محيطه الخاص ولكنهم لم يلعبوا دوراً هاماً في المحيط العام . لهذا فاننا نقتصر الى معلومات كافية عنهم وعن النادر من مصنفاتهم ايضاً) .(٥١)

---

(٤٨) سوسة . الادريسي . مصدر سابق . ص ٤٤٢ .
(٤٩) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ٤٤٢ .
(٥٠) نفس المصدر . ص ٣٦٠ .
(٥١) نفس المصدر . ص ٣٦٦ .

واغلب هؤلاء اتهجوا من المغرب الى المشرق وقد اخذت هذه الاسفار صفات الرحلات التي تميز بها الفكر الجغرافي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

٢ ـ ابو الفداء عمادالدين

هو عماد الدين اسماعيل بن علي بن ايوب بن شاذي صاحب حماه . ينتسب الى اسرة الايوبيين . مؤرخ وجغرافي .

ولد سنة (٦٧٢ هـ ، ١٢٧٣ م) وتولى مناصب ادارية رفيعة لكنها لم تشغله عن التأليف . ولقب بالملك الصالح والملك المؤيد لما اشتهر به من حسن السيرة وتقريبه للعلماء والادباء .(٥٢)

الف كتابين مهمين الاول في التاريخ (المختصر في اخبار البشر) والثاني في الجغرافية (تقويم البلدان) .

وقد عاصر ابو الفداء الجغرافي المعروف بالدمشقي . ويعد كتابه في الجغرافية من المصادر العربية التي تركت اثراً في القارة الاوربية . ويشير كراتشكوفسكي الى رأي العالم الفرنسي رينو **Reined** في كتاب ابي الفداء (تقويم البلدان)

ان العصور الاوربية الوسطى لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به وكتاب (تقويم البلدان) يشتمل على قسمين الاول في الكوزاموغرافيا العامة ويضم المعلومات التي اعتاد الجغرافيين العرب على تقديمها عن الارض واقسامها وقد خالف الادريسي في تقسيمه السباعي فقد قسم الاقاليم الى ٢٨ منطقة .

والقسم الثاني يحتوي على جداول باسماء الاماكن مع بيان درجات اطوالها وعروضها .

كان العلماء الذين اشرنا اليهم سابقاً ابن سعيد . القزويني . ابو الفداء ـ يمثلون الفكر الجغرافي الذي ساد في في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وبحلول القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . بدأ نصيب الاندلس والمغرب في تطور الفكر الجغافي يتضاءل بصورة ملحوظة . وكان السبب في ذلك الوضع السياسي الذي حل بلاندلس . فقد اصبحت غرناطة المركز الوحيد للعرب في الاندلس والتي اصبحت تقريباً تحت رحمة الجيران .

---

(٥٢) سوسة . الادريسي . مصدر سابق . مصدر ص ٤٤٤ .

وكان نمط الرحلات الجغرافية من انسب الانماط ملائمة للمرحلة التي عاشها الاندلسيون الا ان اهتمام المغاربة بانماط الرحلات زاد على اهتمام الاندلسيين ونتج عن ذلك سلسلة من الرحلات العربية ذات الاهمية العالمية والتي كانت مسك ختامها رحلة ابن بطوطة .

اما في مصر . فقد استمر النمط الجغرافي السابق اضافة الى تطور نمطي الخطط والفضائل . واستمرت سيادته حتى القرن التاسع عشر .

اما في شرق الوطن العربي فقد تقلص ظل الفكر الجغرافي وعاش على ماينشر باللغات غير العربية .

٤ ـ ابن فضل الله العمري ٧٠٠ ـ ٧٤٩ هـ / ١٣٠٠ ـ ١٣٤٨ م

هو شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي ، وترقى اسرته الى عمر بن الخطاب (رض) .(٥٣)

ويمثل بفكره وكتاباته ما امتاز به القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي فقد اعتمد في كتاباته على من سبقوه وفي مقدمتهم الادريسي .

وبما ان العمري عاش في مصر وتولى وظائف قضائية وادارية . فقد طغت على كتاباته ميزة القرن الرابع عشر الميلادي . والمتمثلة في كتابه الموسوعات . اذ ان موسوعته وموسوعة النويري تعد ان من اهم الموسوعات التي برزت في هذا العصر .

ومن اشهر مؤلفاته (مسالك الابصار في ممالك الامصار) وهي موسوعة تتألف من ٢٧ جزءا . وتقع في تسعة آلاف وثمانمائة واحدى وثمانين صفحة خطية .

وينقسم المؤلف الى قسمين الاول مكرس للارض والثاني تناول فيه مختلف الشعوب وكل قسم . قسم الى ابواب تناولت مفاهيم جغرافية عامة . برز فيها طابع النقل وقلة الاصالة . ويمتلك العمري اطلاعا واسعاً تولد لديه من انشغاله بالوظائف الحكومية . وبصورة عامة . فموسوعته تعد مصدراً مهما في الجغرافية والتاريخ

---

(٥٣) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ٤٦٥ .

٥ ـ القلقشندي ٧٥٦ ـ ٨٢١ هـ / ١٣٥٥ ـ ١٤١٨ م

هو شهاب الدين ابو العباس بن علي . ولد في مصر في احدى قرى القليوبية كتب موسوعته التي سماها (صبح الاعشى في صناعة الانشاء) وترتبط هذه الموسوعة بموسوعة العمري . والقلقشندي معروف كتاريخي بجانب كونه جغرافيا . كما انه معروف لدى الاوربيين منذ القرن التاسع عشر وتعد موسوعته آخر الموسوعات الكبرى لعصر المماليك .(٥٤)

وتنقسم الموسوعة من حيث التبويب الى عشرة اقسام كبيرة في هيئة مقالات غير متساوية الحجم خصص الجزء الثالث والرابع والخامس للمعلومات من محيط الجغرافية . وهي عبارة عن تكرار للمعلومات السابقة .

بعد ان انتهينا من الاشارة الى العمري والقلقشندي تكون قد اشرنا من خلالهما الى ان هذه المرحلة التي تركز فيها البحث على الموسوعات واتسمت بالاعتماد على المصادر السابقة تكون الجغرافية اخذت تقترب من دخول عصرها المظلم بالنسبة للفكر الجغرافي العربي وتكون قد ودعت نمط الكوزموغرافيا الموسوعات التي سادت القرنين الثالث عشر والرابع عشر وحل محلها نمط الجغرافية الاقليمية .

اما نمط الرحلات فقد استمر حافلا ومتطوراً ومع ذلك فان القرن الرابع عشر الميلادي يمثل نهاية لاكبر رحلة تشمل معظم اقطار العالم الاسلامي وهي رحلة ابن بطوطة .

٦ ـ ابن بطوطة

هو شمس الدين ابو عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي . ولد في طنجة يوم ٢٤ شباط ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م .

وشب في محيط ديني في مسقط رأسه طنجة . وعندما بلغ من العمر الثانية والعشرين شد الرحال ولم يعد الى وطنه الا وقد بلغ الخمسين وكان خروجه لاول مرة لاداء فريضة الحج . فخرج من طنجة مارا في طريقة على جميع المدن الكبرى في شمال افريقية حتى وصل الاسكندرية . ثم سافر الى القاهرة التي كانت تعيش

---

(٥٤) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ٤٧٥ .

(٥٥) شاكر خصباك . ابن بطوطة ورحلته . مطبعة الآداب . النجف الاشرف ١٩٧١ . ص ٢١

عصر الازدهار ـ عصر الممالك ـ ثم اتجه الى اسوان ومنها الى عيذاب على البحر الاحمر .

ولكنه رجع الى القاهرة ومنها اتجه الى دمشق . وقام بزيارة المدن في بلاد الشام ثم فلسطين . بعدها اتجه الى مكة المكرمة بعد ان زار المدينة ثم اتجه الى العراق وشاهد كربلاء والنجف ثم اتجه الى البصرة ـ شيراز ـ الموصل ـ ديار بكر ـ ثم رجع الى الكوفة ثم بغداد . ثم عاد بعد ذلك الى مكة وبقي فيها سنة اتجه بعدها نحو افريقية . ثم اليمن ثم افريقية ثانية . بعدها اتجه نحو الخليج العربي مارا بعمان . هرمز ـ البحرين . ثم زار مكة ثالثة وبعدها خرج مارا بجدة ـ عيذاب ـ القاهرة . ومن القاهرة بدأ مرحلة جديدة في رحلته توجه نحو آسيا الصغرى وبعدها عبر البحر الأسود الى القرم وبعد القرم شاهد روسيا الجنوبية ثم الى بلغار الغلجا . ثم خرج من استرخان الى القسطنطينية ثم اتجه ثانية الى مملكة الاورد الذهبي ثم عبر الفولكا . الى جنوه ـ بخارى ـ افغانستان ثم الى الهند التي وصلها عام ٧٣٤هـ .(٥٦)

وهناك عيّن قاضيا لمدة خمس سنوات ثم سفيرا للهند في الصين ولكن لم يوفق في السفر برا فاتجه الى المالديف وزار سيلان والبنغال والهند الشمالية واندونيسيا ومن هنالك اتجه الى كانتون بالصين ـ ثم اخذ سفينة من سومطرة الى ظفار في جنوب الجزيرة العربية . بعد ذلك توجه الى ايران والعراق والشام ومصر ثم ادى فريضة الحج للمرة الرابعة ثم عاد الى فلسطين ومنها رجع الى وطنه سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م

وسوف نعود الى شرح الأسس الجغرافية لرحلته في اثناء كلامنا عن الجغرافية وصفية والرحلات عند العرب وقبل الوصول الى المرحلة المظلمة من تاريخ الفكر الجغرافي التي حلت منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي .

لابد من الاشارة الى ليون الافريقي (الحسن بن محمد الوزان الزياتي) الذي يعد آخر المؤلفين الكبار في محيط الجغرافية العربية ببلاد المغرب .

وقد تأخر التعرف على نشاطه العلمي من قبل الفكر الجغرافي العربي اما بالنسبة لاوربا فقد عرفته منذ منتصف القرن السادس عشر عندما نشر (راموزيو)

---

(٥٦) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص٤٢٣ .

كتابة « وصف افريقية » سنة ١٥٥٠ م .(٥٧) وهو اول من اشار الى تاريخ وفاة الادريسي .

الفترة المظلمة

في نفس السنة التي اكتشفت فيها امريكا سقطت غرناطة آخر مركز للفكر العربي الاسلامي . ومع ان احداث سنة ١٤٩٢ تمثل اتساعا للافق الجغرافي . بالنسبة للعالم عامة وللغرب خاصة الا انها كانت نهاية للفكر الجغرافي العربي ففي اليوم الثاني من شهر كانون الثاني ـ ١٤٩٢ .(٥٨)

احتلت غرناطة كما احتلت بغداد قبلها سنة ١٢٥٨ م . وقبل احتلال غرناطة . كانت الدولة العثمانية قد برزت للوجود واصبحت القسطنطينية عاصمة لها منذ سنة ١٤٥٣ م . وامتدت سيطرتها الى شرق البحر المتوسط فتم فتح مصر وبلاد الشام على يد سليم الاول سنة ١٥١٧ م وازدادت قوتها البحرية بعد انشاء اسطول بحري قوي .

وصاحب ظهور قوة الدولة العثمانية ظهور الدولة الروسية منذ سنة ١٥٠٥ م(٥٩) وفي هذه الفترة كانت الدولة الفارسية قد بسطت سيطرتها على ايران . واصبح العراق تحت سيطرة الدولة العثمانية . وكان من نتيجة تلك الاوضاع السياسية ان تجزأت وحدة الوطن العربي السياسية والعلمية واضمحلت قوته السياسية واختفت الكتابات الجغرافية العربية وحلت محلها كتابات جغرافية باللغة التركية والفارسية .

اما الفكر الجغرافي العربي في القرن السادس عشر الميلادي . فقد برزت فيه خصائص جديدة تمثلت في التاكيد على الجغرافية الملاحية . التي تأتي كنموذج من نماذج الفكر الجغرافي العربي . التي استنفذ معظمها منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

---

(٥٧) الحسن بن محمد الوزان الزياتي . وصف افريقية . من منشورات جامعة الامام محمد بن سعود . الرياض ١٩٨٦ . ص ـ أ ـ .

(٥٨) فليب حتي تاريخ العرب . ترجمة محمد مبروك نافع . من مطبوعات دار المعلمين العالية . بغداد ١٩٤٥ . ص ٨٠ .

(٥٩) محمد رفيعت . مصدر سابق . ص ٦٢ .

والجغرافية الملاحية العربية تعد قاعدة للملاحة البحرية العالمية في تلك المرحلة . فقد تمت المعرفة الملاحية وبرزت لدى سكان شبه الجزيرة العربية منذ القرن السابع قبل الميلاد .(٦٠)

فمع ان نتائج الملاحة برزت على يد غير الغرب عندما تم اكتشاف العالم الجديد وطريق رأس الرجاء الصالح الا ان الدور العربي في تثبيت الجغرافية الملاحية لايمكن تناسيه لانها وصلت الى مستوى عال فعندما وضع فرامور Framaure مصوره الجغرافي سنة ١٩٥٧ م اشار الى ان ملاحا عربيا ابحر سنة ١٤٣٠ من المحيط الهندي حول القارة الافريقية فظهر في المحيط الاطلسي .(٦١)

كما ان فاسكو ديغاما في سنة ١٤٩٧ ـ ١٤٩٨ ، اثاره مشاهدته السفن العربية التي تحمل البوصلة . وهو يذكر ذلك حرفياً بقوله « ويحمل الربانية بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » .(٦٢) . ووجد فيها بعض الكتب المخطوطة والتي قام بارسالها الى الملك مانؤيل كما ان البوكرك الذي جاء بعد ديكاما اشار الى انه مدين بفتوحاته البحرية في المحيط الهندس الى خارطة عربية بحرية من عمل ربان عربي اسمه عمر .(٦٣)

ومع ان القرن السادس عشر قد شهد تطورا في رسم الخرائط واصبحت السيادة بيد الغرب الا اننا لايمكن ان نتناسى ماوصلت اليه المعرفة الملاحية في هذه المرحلة .

علما بان علم الملاحة في مجال الفكر الجغرافي العربي كان يحتل اهتماما كبيراً منذ بداية الفكر العربي سواء ماكان منه قبل الاسلام او في العصر الاسلامي . لأن طبيعة الموقع العربي فرضت عليهم معرفة المياه التي تحيط بشبه جزيرتهم منذ فجر حضارتهم .

وكذلك الحال بالنسبة للفترة التي سبقت سقوط بغداد . فقد كان للتوسع التجاري العربي الاسلامي اثره الكبير في تركيز المعرفة الملاحية في الفكر الجغرافي فقد اشار ابن ماجد في مؤلفاته الى اسماء عدد من المؤلفين في العصر العباسي والذين

---

(٦٠) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ، ص ٥٦٢

(٦١) اوليري ، مصدر سابق ، ص ١٣١ .

(٦٢) باسيل دافيدسون ، مصدر سابق ، ص ٣٩ .

(٦٣) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ، ص ٥٦٢ .

سفوه ومنهم محمد بن شاذان وسهل بن آيان والليث بن كهلان . كما اشار المسعودي الى دور العرب في وضع الكثير من العبارات الخاصة بالملاحة وقد توجتت الملاحة العربية بمؤلفات ابن ماجد . والمهري .

(١) ابن ماجد

هو شهاب الدين احمد بن ماجد السعدي النجدي والذي ينحدر من اشتغل افرادها بقيادة السفن حيث كان جده وابوه « معلمين » ويعد الادب والاساطير اليهم . حتى ان الملاحين في عدن كانوا الى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة الى ولي من اهل الشام يدعى الشيخ ماجد .(٦٤)

ويعد ابن ماجد من اهم الذين الفوا وكتبوا في الملاحة العربية ونستخلص ذلك من الاسماء والالقاب التي اطلقها ابن ماجد على نفسه من خلال مؤلفاته (ناظم القبلتين مكة وبيت المقدس ، حاج الحرمين الشريفين ـ اسد البحر الزاخر ـ المعلم العربي) .

وآثاره كثيرة يبلغ عدد الموجود منها في الأونة الحاضرة اربعين مصنفا وتمتاز كتاباته بالاصالة .(٦٥)

ومعظم مؤلفاته قد نظمت شعرا ماعدا واحدا من مصنفاته الكبرى قد كتب نثرا وهو (كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد) . وتعرف مصنفاته الاخرى بالاراجيز . وتعالج كل واحدة منها الكلام عن طريق بحري معين . اي انها اشبه ماتكون بمرشدات بحرية .

ومن الصفات الحميدة لهذا العالم العربي . انه يقدر السابقين له . فقد اشار الى المصنفات التي راجعها فذكر منها كتب بطليموس والنباتي وعبد الرحمن الصوفي والمراكشي والطوسي وابن حوقل وابن سعيد وياقوت .

ويمتاز ابن ماجد بقرآته الكثيرة في مجال الادب ولا تقتصر مطالعاته على الجغرافية الملاحية وله اطلاع في الادب الجغرافي العربي في معظم جوانبه . وقد انعكس ذلك على كتاباته . فبرزت فيها صفة الاعتزاز بنفسه .

---

(٦٤) نفس المصدر . ص ٥٦٥ .

(٦٥) سوسة . الادريسي . ص ٣٦٣ .

وقد برز الكثير من الباحثين اعتزاز ابن ماجد بنفسه . وعزو ذلك الى كونه أول مؤلف للمراشدات البحرية الحديثة . كما انه بارع في معرفة الرياح البحرية وفي مقدمتها الرياح الموسمية .

(٢) سليمان المهري

اصله من بلاد العرب ومن مدينة الشعر على الساحل الجنوبي لحضرموت . وله في فن الملاحة مؤلفات نشر منها اربعة كتب او كتيبات ورسالة هي (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) التي الفها سنة ٩١٧ ٩١٧ هـ / ١٥٤١ م .(٦٦) وتنقسم الى سبعة ابواب وتنقسم بدورها الى فصول وقد تناول في هذه الفصول . الفلك البحري والنجوم وما يتعلق بها من شؤون الملاحة والطرق البحرية والقياسات .

واما المصنف الثاني فيحمل عنوان (كتاب المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر) . وينقسم الى سبعة ابواب . تناول فيها السواحل القارية للمحيط الهندي والمؤانيء الموجودة والجزر الكبيرة المأهولة بالسكان والمسافات بين بلاد العرب وساحل الهند الغربي واهم العواصف التي تتعرض لها السفن والعلامات التي يستدل بها على الاقتراب من سواحل العرب .

لقد كان كل من ابن ماجد والمهري اهم ظاهرة تمثل الفكر الجغرافي في فترته المظلمة . ويمثلان آخر تيار اصيل في هذا الميدان حتى القرن العشرين .(٦٧)

ومما دمنا نتابع الفكر الجغرافي العربي في الفترة المظلمة فلابد من الاشارة الى اهم الظواهر التي برزت في الفترة المظلمة ومنها :

أ ـ ظهور مراكز اسلامية خارج الوطن العربي . اخذت تتابع بعض التطورات للفكر الجغرافي وكان وراء ظهور هذه المراكز ماقدمه الفكر الجغرافي العربي من مصادر اساسية يمكن وصفها بطابع اقليمي محدود ولذلك فقد برز في هذه الفترة مركزان للفكر الجغرافي . تمكن من الاستفادة من الثروة الفكرة الجغرافية العربية وتحويلها الى فكرة قطرية . وهذان المركزان هما المركز الفارسي والمركز التركي .

---

(٦٦) الهيتي . المشهداني . السعدي . مصدر سابق . ص ٢٠ .

(٦٧) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ٥٩٦ .

ب ـ حاولت الاقطار العربية . العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب العربي ان تسير بما تبقى لها من التراث على طريق الاعادة والاقتباس . دون التجديد .

فقد ظهر مصنف النعيمي في سورية . وكتاب ابن طولون في الجغرافية الاقليمية في دمشق . وفي جدة كتب محمد بن عبدالعزيز القرشي (جارالله) كتابه المعروف (السلاح والعدة في بندر جده) وهو كتاب في الجغرافية الاقليمية .

ولقد استمرادب الرحلات ولكن بطابع محدود يرتبط بالفكر الجغرافي التركي لان معظم هذه السفرات كانت باتجاه تركية ومن هذه الرحلات رحلة مكاريوس الانطاكي الى روسيا .

ومن الرحلات التي تنتسب الى القرن السابع عشر رحلة الياس بن حنا الموصلي الى امريكا الجنوبية والتي خرج فيها من بغداد سنة ٦٦٨ م .

اما اوصاف هذه الرحلات العربية التي خرجت في هذه الفترة والتي ساهمت فيها الاوساط المسيحية التي اصبحت تكون حلقة الوصل بين الدولة العثمانية وجيرانها . فهذه الرحلات لاترتفع الى مصاف المصنفات المبكرة من هذا الطراز(٦٨) .

واستمرت هذه الانماط الممثلة في الجغرافية الاقليمية والرحلات فشغلت معظم الباقية من الفترة المظلمة ولما كانت نهاية الفترة المظلمة قد امتدت الى الدولة العثمانية التي كانت مسيطرة على الوطن العربي فقد بقي الفكر الجغرافي يسير على انماط الفترة المظلمة المتمثلة في الرحلات والكتابة عن الاقاليم حتى سقوط الدولة العثمانية .

---

(٦٨) كراتشكوفسكي . مصدر سابق . ص ٥٢٤.